

وكيف لا يعاقبك بمنع النصرة وقد نسيتَه ، واقتدرت في أمره ، وقد أمرك بأن تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فمن اقتدر في أمره ، والأمر كله لله ، والخلق لله ، والقدرة لله ، عوقب بأن يخذل ، وعرف بالخذلان أن اقتداره كان خطأ ، وأنه لا يقدر إلا به ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ^(١) .

النصرة

قال له قائل : فما النصرة ؟ هل يمكن أن تُوصف ؟ فقال : إن نور المعرفة في القلب ، حتى يخرج إلى عين القلب ، والهوى قائم على القلب حجاباً ، فإذا جاهد العبد هذا الهوى حق المجاهدة ، وحق جهاده هو غاية طاقة العبد ، فنصرته أن يهديه سبيله ، وهو أن يجعل له طريقاً

(١) سورة آل عمران - من الآية رقم ١٦٠ .

من قلبه إليه ، حتى يصير عين قلبه ، كأنه يراه من غير كيفية .

وهو قول جبريل - عليه السلام - لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث سأله عن الإحسان ، فقال : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأنك تراه »^(١) . وقال في حديث آخر : « إِنْ أَقْوَامًا أُيْقِنَتْ قُلُوبُهُمْ ، حَتَّى كَانَهُمْ عِبَدُوا اللَّهَ عَلَى رُؤْيَا » .

قال ابن عمر ، رضى الله عنهما في حديث : « إِنْ كُنَّا نَرَى اللَّهَ تَعَالَى بَيْنَ أَعْيُنِنَا فِي الطَّوْفِ » . حدثنا بذلك قتيبة ، عن محمد بن منير ، عن نافع ، عن ابن عمر .

وقال في حديث حارثة ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ » قال : مُؤْمِنًا حَقًّا . فسأله عن الحقيقة ، فقال : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَبِّي عَلَى عَرْشِهِ » ، هذا في رواية ، حدثنا أبي ، عن ابن أبي حبيش ، عن عبد العزيز بن أبي دؤاد . وأما رواية ثابت عن أنس ، فإنه روى : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي » وهذا النوع في الآثار كثير .

(١) البخارى ج ٨ ص ٥١٣ ، ومسلم ج ١ ص ٣٩ ، والترمذى ج ٥ ص ٦ وأبو داود وابن ماجه .

وإنما أدرك هذا حارثة بمجاهدات النفس ، ألا ترى إلى قوله : « عَزَفْتُ نَفْسِي عَنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا » فهذا قطع الهوى ، فإذا قطعه هداه الله طريقه ، فإذا نظر صار كأنه يراه بلا كيف ، وهكذا وعد في كتابه ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾^(١) .

فإذا هداه طريقه ، لم يبق على قلبه حجاب للشهوة والهوى ؛ لأنه فتح طريق قلبه إليه ، فحينئذ يمكنه السكون إليه ، ويطمئن القلب ، ويثق بوعده ، ويأتمنه على نفسه ، ألا ترى إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم حيث حكي عنهم ، قالو : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾^(٢) . . الآية .

فأخبروا أنهم إنما قدروا على التوكل ، وهو تفويض أمر النفس إليه ، بأنه هداهم لسبيله ، فزال الحجاب ، أعنى الهوى والشهوات ، عن بصر القلب ، فلم يبق بين يدي قلوبهم شيء يحجبهم ، فصارت الأمور لهم كالمعينة والمشاهدة ، ألا ترى

(١) سورة العنكبوت - من الآية رقم ٦٩ .

(٢) سورة إبراهيم - من الآية رقم ١٢ .

إلى قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حيث وصف القلب ، فقال : « أبصر الغيب بالغيب فأمن » ، أو كما قال . فهذه نصرة الرب عز وجل .

فإذا تركت المجاهدة على الحقيقة منعك النصرة ، فبقيت مخدولاً ، مأسوراً في يدى الشهوة والهوى ، فإذا صار القلب مأسوراً ، فهو كملك مأسور في يد العدو ، فإذاً تعذر عليه الأعوان والجند ، بل يذلون وينهزمون في الملاحى والأباطيل .

المجاهدة

قال له قائل : فكيف تكون المجاهدة على الحقيقة ، إذ قال : « حق جهاده ؟ » .

فقال : اعتبر مجاهدً الظاهر ، وامثل رجلين ، أحدهما سلاحه تام ، وحمل نفقة سنة ، وتجهز بما يحتاج إليه ، ورافق في الطريق رفقاء ، وتبسَّط في مَسِيرِهِ وطَرَبَ مع رفقائه ، وتلذَّذ برؤية الكون ولقاء الناس .

وفرَّح بما نُسب إليه من الجهاد ، والغزو ، فقيل : هذا فلان الغازى ، وطمعت نفسه فى علو المرتبة ، وارتفاع المنزلة